منارات
manarat
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
www.almadasupplements.com
العدد (5399) السنة العشرون - الاربعاء (29) آذار 2023

البيروني

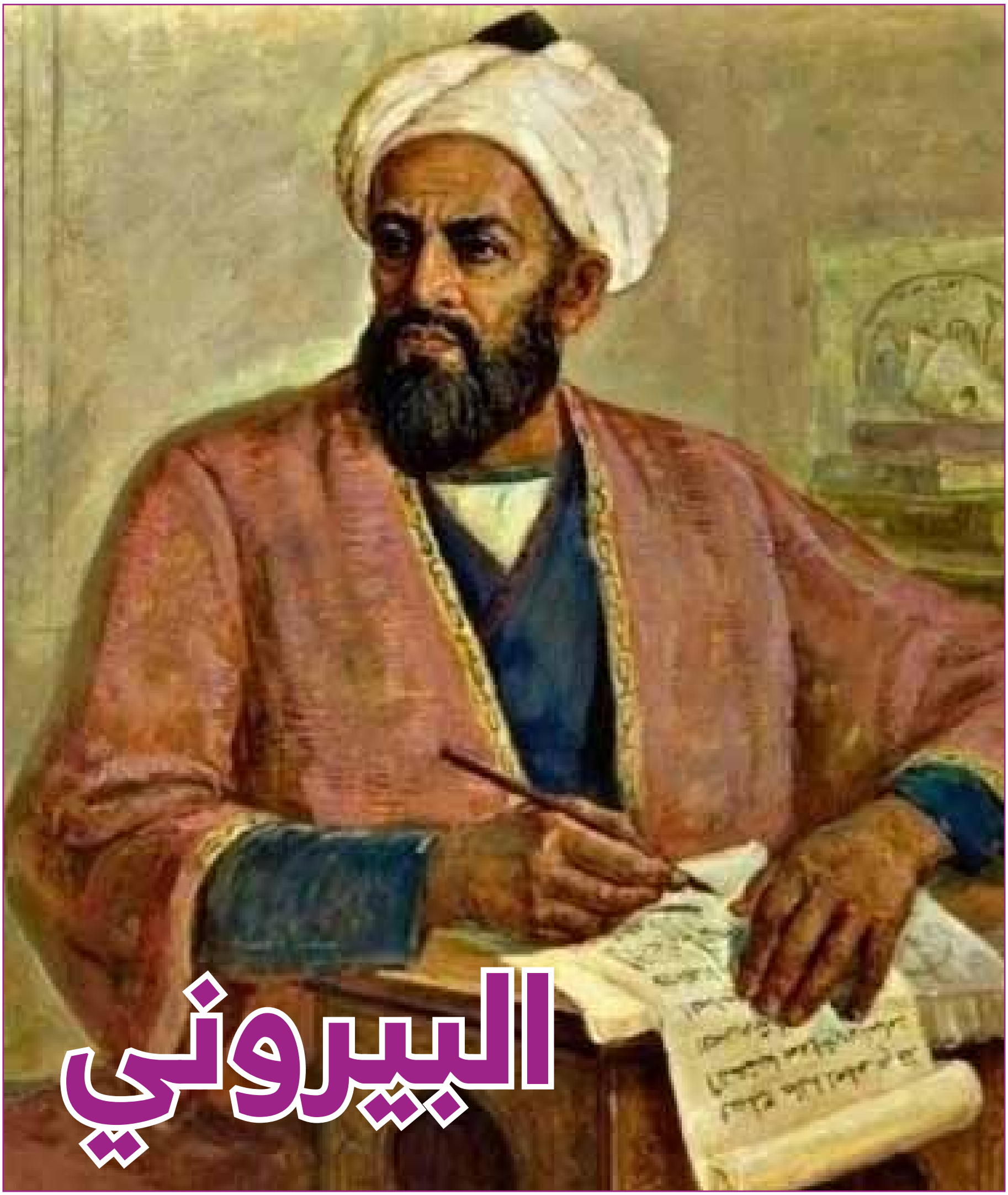

"تحقيق ما للهند من مقولة" البيروني: المقارنة الظالمة

ابراهيم العريس

" ولم يكن للهند امثالهم ممن يهذب العلوم، فلا تكاد تجد لهم خاص كلام إلا في غاية الاضطراب وسوء النظام ومشوباً، في آخره خرافات العوام من تكثير العدد وتمديد المدد ومن موضوعات التخيلة التي يستفظع اهلها فيها المخالفة، ولأجلها يستولي التقليد عليهم. وبسببه اقول في ما هو بابتي (غايتي) منهم أني لا أشبه ما في كتبهم من الحساب وعلوم التعاليم إلا بهدف مخلوط بخزف...

إذ لا مثال لهم لمعارج البرهان، وأنا في اكثر ما أورده من جهتهم حاك غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة". بهذه العبارات الواردة منذ الصفحات الأولى لكتابه الشهير "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" يحدد المفكر والكاتب المسلم ابو الريحان البيروني منذ البداية، هدفه مؤكداً انه إذ زار الهند وكتب عنها، آثر ان يكون موضوعياً في ما يصفه وألا ينتقد إلا "عن ضرورة ظاهرة". غير ان البيروني، بالطبع، لم يف بوعده هذا، لأن معظم ما في فصول كتابه انما ينطلق من مقارنات بين ما يشهده بأم عينيه في هذا العالم الغريب عليه الذي لم يكن له، أو لمواطنيه، عهد به، وبين ما هو قائم في ديار الإسلام نفسها. ولسنا في حاجة الى القول هنا، طبعاً، ان المفاضلة تكون دائماً لمصلحة ديار الإسلام، وهو امر لم يفت البيروني ان يقرره منذ عنوان كتابه، حتى ولو ان الفقرة التي سقناها اعلاه تقول عكس هذا. فهذا العالم / الكاتب / الرحالة يفيدنا منذ العنوان، بأن ما يصفه لنا انما هو تحقيق ما يمكن ان يقال عن الهند (وما يمكن ان يشاهد فيها) ولكن عبر فرز ما هو معقول مما هو مرذول. والحال ان ما هو مرذول سيكون في سياق الكتاب كثير. ولكن هل حقاً، يقف نص البيروني ضد ما هو مرذول، ام ان وصفه لهذا "المرذول" يحمل احياناً شيئاً من "التواطؤ الضمني" الخفي، يشي بما يريده البيروني لأمته ويراه عند الآخر، لكنه لا يجرؤ تماماً على الجهر بلزومه فيتحدث عنه موارية؟

إن الوصف الذي يقدمه لنا ابو الريحان البيروني لذلك العالم الفسيح الذي قُيّض له ان يشاهد بعض اجزائه، يشي بأن الواصف لم يكن رحالة عادياً، على غرار ابن بطوطة أو ابن جبير، او حتى على غرار ابن فضلان، فهو نظر الى الهند نظرة العالم والفيلسوف والرياضي والفلكي والجغرافي والمؤرخ. ولعل العالم فيه غلب على صفاته الأخرى، إذ اننا سرعان ما نراه ينهل من العلوم التي لاقاها وسمع عنها، واختبرها في الهند... وهي كلها علوم مفيدة. بيد ان البيروني، اذ يقرر فائدة هذه العلوم لا يفوته ان يشجب، في طريقه، بعض اساليب الحياة في الهند، ومعظمها يتعارض دينياً وروحياً مع تعاليم الإسلام.

وعلى هذا يكون ابو الريحان من اوائل المفكرين المسلمين الذين رأوا دائماً – وبصورة قد تبدو لنا اليوم انتقائية بعض الشيء – ان في الإمكان اقتباس امور من حضارة ما، وترك امور اخرى، على اعتبار ان ثمة انفصالاً بين تلك الأمور. وهي النظرة ذاتها التي سيقول بها مفكرو عصر النهضة الإسلامية والعربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين يطالبون بأخذ علوم الغرب وتقدمه التقني، من دون اقتباس اخلاق هذا الغرب وعاداته الاجتماعية.

لقد زار ابو الريحان البيروني الهند مرافقاً السلطان محمد الغزنوي في غزواته الى شماليها الغربي. وفي الهند تعلم اللغة السنسكريتية اضافة الى عدد من اللهجات واللغات الرائجة في شبه القارة، واطلع على علوم الهند وفنونها، ولم يتردد دون دراسة الديانات الهندية والفلسفات الرائجة هناك، قارئاً عنها بلغاتها الأصلية، فكان واحداً من مفكرين مسلمين نادرين أتيح لهم ان يعرفوا الهند وثقافتها، مباشرة، وليس بالواسطة، وهذا ما يعطي ما يقوله عن الهند صدقية كبيرة. ومع هذا يظل توخي الحذر ضرورياً في التعامل مع كل التأكيدات التي يوردها البيروني حين يتحدث عن الحياة الاجتماعية والطقوس الدينية لدى شعوب ذلك الجزء من العالم. وفي المقابل، يمكن التوقف طويلاً عند العلوم التي اطّلع عليها البيروني عند ذلك الآخر، ووصفها بالتفصيل في كتابه هذا، ثم عاد لاستخدامها مدللاً عليها بالتجربة الحسية في الكثير من كتبه التالية، والتي غلب عليها الطابع العلمي، فيما غلب الطابع الجغرافي والفكري على "تحقيق ما للهند من مقولة..." ومن تلك الكتب "الجماهر في الجواهر" و "الآثار الباقية على القرون الخالية" و "الصيدلة في الطب" و "مقاليد الهيئة" و "التفهيم في صناعة التنجيم"... الخ.

من الناحية العلمية، إذاً، قدّم ابو الريحان للفكر الإسلامي خدمات جلّى من خلال نظرته الثاقبة الى ما شاهده واختبره في الهند، وهكذا نجده يوضح استخدام الأرقام الهندية، واستخدام الأصفار لمقام الخانات. وكذلك نجده يحسب السلسلة الهندسية لبيوت الشطرنج. و– كما يقول الدكتور عمر فروخ في حديثه عن البيروني – حلّ هذا الأخير مسائل تعرف بـ "مسائل البيروني" وهي لا تحل بالمسطرة والفرجار، ومنها قسمة الزاوية ثلاثة اقسام متساوية، وحساب قطر الأرض. وهو كان من اوائل العلماء المسلمين الذين برهنوا على ان سرعة النور اعظم كثيراً من سرعة الأرض. كما بحث في الثقل النوعي و "استخرج الأثقال النوعية لثماني عشرة مادة من المعادن والحجارة الثمينة بدقة بالغة" كما يؤكد فروخ. وتكلم البيروني كذلك عن "كروية الأرض وعلى دورانها حول محورها من غير ان يصل الى نتيجة حاسمة" وهو عرف "تعيين خطوط الطول وخطوط العرض، كما عرف تسطيح الكرة".

غير ان هذا الاشتغال بالقضايا العلمية، انطلاقاً من خلفياتها الهندية، لم يمنع البيروني من ان يلتفت، بخاصة الى مسألة كانت كثيراً ما تشغل بال المسلمين في حديثهم عن الهند، وهي مسألة "الأرواح وترددها بالتناسخ في العالم". ونراه هنا يقول في احد فصول كتابه هذا: "كما ان الشهادة بكلمة الإخلاص شعار المسلمين، والتثليث علامة النصارى، والإسبات علامة اليهود، كذلك التناسخ علم التخيلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يكن منها ولم يعد من جملتها. انهم قالوا: ان النفس اذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب احاطة كلية دفعة بلا زمان، واحتاجت الى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات. وهي وإن كانت متناهية فلعددها المتناهي كثرة، والإتيان على الكثرة مضطر الى مدة ذات فسحة. ولهذا لا يحصل العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناولها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها في كل واحدة تجربة وتستفيد بها جديدة معرفة... فالأرواح الباقية تتردد لذلك في الأبدان البالية بحسب افتنان الأفعال الى الخير والشر ليكون التردد في الثواب منبهاً على الخير فنحرص على الاستكثار منه، وليكون التردد في العقاب منبهاً على الشر والمكروه فتبالغ في التباعد عنه. ويصير التردد من الأرذل الى الأفضل دون عكسه لأنه يحتمل كليهما ويقتضي اختلاف المراتب فيهما لاختلاف الأفاعيل بتباين الأمزجة ومقادير الازدواجات في الكمية والكيفية. فهذا هو التناسخ الى ان يحصل من كلتي جنبتي النفس وإعادة كمال الغرض... ".

ولد محمد بن احمد ابو الريحان البيروني، الفارسي، في بيرون عاصمة خوارزم سنة ٩٧٢م. وعاش اول الأمر في بلده وراسل ابن سينا. ثم بدأ يرتحل من مكان الى مكان ويقرأ بشغف، حتى حطّ رحاله اخيراً في جرجان، حيث اتصل بأميرها منصور بن نوح الساماني. ثم حدث في حوالى العام ١٠١٧ ان غزا السلطان محمود الغزنوي تلك المنطقة وعاد منها بعدد كبير من العلماء والمفكرين وكان البيروني في عدادهم، وهكذا صار البيروني المنجم الرسمي لبلاط ذلك السلطان المتنور. ولاحقاً حين غزا محمود الغزنوي بعض مناطق الهند، كان ابو الريحان في رفقته. وهناك كان اطلاعه كما اسلفنا على علوم الهند وديناتها، ما أتاح له ان يقارن مع ما لدى الإسلام من ذلك، ولكن ايضاً مع ما أثر عن اليونان في المجالات نفسها. ومن هنا جاء كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" موسوعة شاملة في العلوم والمعارف الكونية. ولقد واظب البيروني على القراءة والكتابة في بلاط الغزنويين حتى رحيله عن عالمنا في العام ١٠٥٠م تقريباً.

× من ارشيف صحيفة الحياة اللندنية

من إصدارات المدى.. حيـاة البيرونـي

قراءة: فريدة الأنصاري

نتيجة لظروفنا الثقافية التي نمر بها في المرحلة الحالية ونتيجة للخطر الثقافي الزاحف علينا من الخارج، اختلفت وجهات نظر المثقفين حول أهمية التراث في حياتنا الثقافية والفكرية.

فالبعض منهم يرى بأنه يشكل عبئا ثقيلاً يقف في وجه التيارات الفكرية الحديثة وما يسمى بالحداثة، والبعض الآخر يجد فيه جزءاً اساسيا في تكويننا الثقافي والفكري، وليس هناك ما يدعو الى الانقطاع عن جذورنا، وأن دراسته تساعد على تطوير واقعنا الثقافي وربطه بالحركات.

وقد دأبت مؤسسة المدى على طبع الدراسات ذات القراءات الجديدة لتراثنا انطلاقا من ايمانها بأهمية التراث واعتبار الثقافة وحدة كلية متكاملة وعملية مستمرة ومتصلة عبر العصور، رغم ما يحدث على بعض مظاهرها من تغيير واختلاف وما يستجد عليها من إضافات واستعارات من ثقافات اخرى تزيد ثقافتنا ثراءً.

والكتاب الذي بين ايدينا واحد من تلك الكتب التي تولت دار المدى طبعها لشخصيات تراثية بقراءات ة جديدة ألا وهو المؤرخ والفيلسوف والعالم الرياضي والفلكي أبو الريحان البيروني.

و تحت عنوان (حياة البيروني) يلقي الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد الضوء على حياة هذا العالم الجليل من خلال دراسة مؤلفاته الفلكية والجغرافية والفلسفية ومنهجه في كتابة التاريخ.مؤكدا بان الغالب على عقلية البيروني كان طابع العلم الرياضي الفلسفي وهو أقرب الى أبيقور من بطليموس ولم يمارس العمل السياسي بخلاف ابن سينا وانه متأثر بسيرة أبي بكر الرازي وهذا ما سيجده القارئ في فصول الكتاب الستة:

الفصل الأول من الكتاب يتناول فيه حياته واهم أحداث عصره فيطلعنا على تاريخ الدولة الغزنوية والعلاقة بين البيروني وبين السلطان محمود، ومن ثم خليفته السلطان مسعود. وقبل ان ينتقل الى الفصل الثاني من الكتاب يقدم لنا فهرسا بالكتب التي الفها البيروني فيبين كيف وقف البيروني منذ نعومة اظفاره على دراسة كتب من سبقه من العلماء مثل الفزاري ويعقوب بن طارق الخوارزمي والكندي وأبو معشر والجيهاني وكان لا يترك يوما من غير ان يقرأ ويدون ملاحظاته،وكتب ما لا يقل عن خمسة عشر كتابا ورسالة في موضوعات كثيرة مثل: – (القانون المسعودي)الذي نجد فيه اهم انجازاته في علم الفلك و(الآثار الباقية عن القرون الخالية) و(تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)وتمكن من قياس وتحديد خطوط الطول والعرض وإيجاد ابعاد الكعبة وتمكن ايضا ًمن وضع قوانين رياضية كقانون الاستكمال أو افناء الفرق قبل ان يكتشفه نيوتن وهذا ما يبحثه في الفصل الثاني من الكتاب.

في الفصل الثالث (البيروني المنجم) يعرض لنا مبادئ علم التنجيم كحرفة قديمة لجأ اليها الملوك والعامة لتدبير امورهم السياسية والاجتماعية متوصلاً الى رأي مفاده بان البيروني كان مؤمنا بعلم الأحكام ويقيم علم التنجيم لا العرافة، مفندا آراء بعض الباحثين ممن نفوا ايمانه بالتنجيم.مبينا كيف انه لتبحره في علم الفلك طرح العديد من الفرضيات حول ماهية السنة والشهر واليوم عند الأمم.

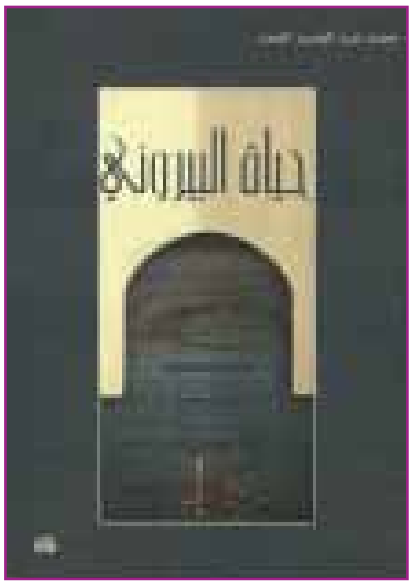

وعندما اقدم البيروني على كتابة التاريخ وضع لنفسه منهجا علميا لا يقوم على سرد الأحداث والنقل على من سبقه من المؤرخين بل تجاوزهم بالتحليل والتمحيص فبحث عن الأسباب وتتبع النتائج بعيدا عن التعصب والمذهبية.فتحت عنوان ابو الريحان المؤرخ الثقة يبحث في الفصل الرابع منهج البيروني التاريخي مبينا كيف استفاد من منهجه ابن خلدون عند كتابة مقدمته. وفي هذا الفصل يطلعنا البيروني على المانوية وقصة اصحاب الكهف والطوفان وفق ما جاءت في التوراة والإنجيل موضحا اختلافهم عما جاء في القرآن. ومن الروايات التي تثبت منهجية البيروني في تدوين الحوادث وعدم انحيازه الى هذه الفئة أو تلك ما ذكره عن يوم عاشوراء.

الفصل الخامس من الكتاب جاء بعنوان (أبو الريحان الجغرافي) يعرض فيه أعمال البيروني في الجغرافية البشرية الوصفية وخاصة كتابه تحديد نهايات الأماكن الذي وضعه في بلاط محمود الغزنوي، وتحت ظروف صعبة.فيوضح كيف شرح البيروني أثر الوسط الجغرافي على الإنسان، تلك الشروح التي وضعته في صف عباقرة زمانه. وفي هذا السياق يلقي الضوء على اعماله في الجغرافية الفلكية ليختم الفصل بتتبع تاريخ صناعة الخرائط في الحضارات القديمة في بلاد الرافدين ومصر حتى عصر البيروني مبينا الأهداف العامة لصنع الخرائط التي حددها البيروني والأساس والمصدر التي اعتمدها وأولها كتاب بطليموس.

الفصل الأخير من الكتاب (الفلسفة عند البيروني) تناول فيه ماهية الفلسفة وأقسامها الثلاثة: العلم الإلهي"ما وراء الطبيعة"وفيه عرض البيروني من منطلق فلسفي صفات الخالق وخلقه للعالم والنفس. واختلافه عن ابن سينا فالذي قال"كل موجود فهو واجب الوجود، وأما ممكن الوجود، ولا ثالث لهذين الضربين من الوجود ولما كان الممكن الوجود لا بد ان تتقدم عليه علة تخرجه الى الوجود"ومن ثم عرض فلسفته عن الطبيعة وعن الصورة والمكان وحركة الأرض والزمان، فالطبيعة هي العالم المحيط بنا وهي موجودة خارج وعينا ومستقلة عنه وهي غير متناهية في الزمان والمكان وهكذا يمضي الأستاذ محمد عبد الحميد في شرح فلسفة الطبيعة عند البيروني موضحا اوجه الخلاف مع أرسطو و ابن سينا وفي القسم الثالث عرض فلسفته في المنهج التاريخي والقضاء والقدر والقوة التي تحرك التاريخ والبشر فيبين كيف طالب البيروني ان يبعد البشر عن عقولهم جميع العوامل التي تؤدي بنا الى الزلل وذلك بالتحرر من التقاليد التي تعمينا عن رؤية الحقيقة التاريخية، وان نكبت رغباتنا ودوافعنا الشخصية وان اخبار الامم السالفة قد دخلها العبث والفساد مما يتوجب تحكيم العقل ورفض ما يناقضه لأن طبائع الأشياء تجري على سنن معلومة وفي هذا الصدد يبحث الأستاذ محمد عبد الحميد ثلاث كتب من كتبه التاريخية (كتاب الآثار الباقية، كتاب تحديد نهايات الأملكن، وكتاب في تحقيق ما للهند من مقولة في العقل مقبولة أو مرذولة) مبينا اسلوبه في كتابة كل منهم.

من قراءة هذا الكتاب يمكننا القول بأن المؤلف قدم قراءة جديدة لكتابات قديمة وشخصية تعد سيرته وأفكاره ومنهجه أعظم انجاز لتفخر به الحضارة العربية الإسلامية وان مكتباتنا العلمية بحاجة الى مثل هذه الدراسات

"باتنجلي الهندي"..
كتاب البيروني إلى الإنكليزية

وضع العالم الجغرافي والفلكي المسلم أبو الريحان البيروني (٩٧٣ – ١٠٤٨) كتاباً بعنوان "باتنجلي الهندي في الخلاص من الارتباك" تضمّن خلاصة اطلاعه على مراجع عديدة تبرز محاور مشتركة بين التقليدين الصوفيين المسيحي والهندوسي والتفاعل المحتمل بينهما، محاولاً أن يقارنهما بـ التصوّف الإسلامي.

كان مؤلّفه جزءاً من سلسلة مؤلّفات أراد من خلالها نقل الحكمة الهندية إلى الثقافة العربية، فقد معظمها ولم يصلنا منها شيء، حيث تعلّم اللغة السنسكريتية وقرأ بعض أمهات كتب الفلسفة فيها، لكن تواصله مع الفلاسفة الهنود أفاده كثيراً، حيث قدّموا له التفسيرات الواضحة والمحدّدة لمفاهيم وتنظيرات فلسفية عديدة.

صدرت حديثاً النسخة الإنكليزية من الكتاب عن سلسلة "مكتبة الأدب العربي" ضمن "منشورات جامعة نيويورك بترجمة وتحرير ماريو كوزاه، أستاذ الدراسات السريانية والإسلامية في "الجامعة الأميركية" ببيروت، والتي تشتمل على أفضل الدراسات المقارنة في الأديان والفلسفة.

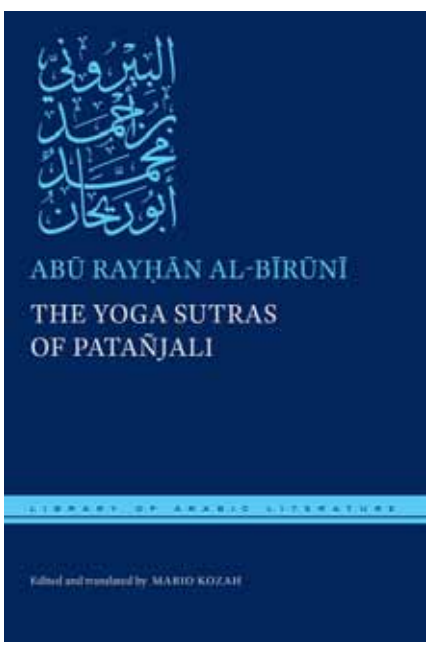

يشير المترجم إلى دور البيروني في استيعاب وتفصيل الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ، واتصاله بالشيخ ابن سينا، حيث كانت بينهما مراسلات قيل إنها كانت ذات أثر في حياة البيروني العلمية، وبالرغم من أنه كان على صلة قوية بابن سينا والفارابي؛ إلا أنه كان في نزعته العلمية يعدّ حقاً تلميذاً للكندي والمسعودي.

ويقول البيروني في تقديم كتابه "وكنت نقلت إلى العربية كتابين: أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات، واسمه "سانك" والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف "باتا نجل"، وهذا الأخير هو الذي نقلب صفحاته، حيث يضم أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقاد أهل الهند، دون فروع شرائعهم".

يضيف "باتا نجل هو مؤلف هندي عاش تقريباً حوالي سنة ٣٠٠م، والكتاب الذي ألفه هذا العالم الهندي وترجمه البيروني اسمه "هوكا سوترا" وكلمة "جوكا سوترا" في اللغة الهندية القديمة معناها التصوف، والتصوف الهندي نوع من الزهد، الغاية منه الوصول إلى تلف الأعمال العجيبة المشهورة، التي منها رفع الجسم في الهواء، وتحريك الأشياء البعيدة، والدفن تحت الأرض لمدة طويلة. وأما كلمة "سوترا" فيقصد بها المتن الذي يحفظ، وإذا يكون معنى "جوكا سوترا" متن التصوف، الذي ينبغي أن يحفظ".

اتبع البيروني في ترجمة هذا الكتاب طريقة السؤال والجواب اللذين تكررا سبعاً وثمانين مرة. وهو إلى هذا يصور فلسفة "جوكا" الهندية؛ وهي فلسفة دينية تقوم على أساس تعذيب الجسد في سبيل خلاص النفس، وطريق الخلاص كما رسمه "باتا نجل" في كتابه له خصال منها تسكين النفس والمقصود منها إيقاف إدخال الهواء وإخراجه، والجوكيون في الهند كما هو مشهور يدفنون أنفسهم في بعض الأوقات في الأرض، بعد أن يعطلوا حركة النفس، وتلك فلسفة الخلاص في الجوكية الهندية.

ومن الخصال المؤدية إلى الخلاص؛ التفكر، بحسب الكتاب، ويقولون فيه: "من أراد الاستتار عن الأعين، أدام التفكير في البدن، وما تصور به من حسن وقبح وطول وقصر هيئة، ودأب على غض البصر، وقبض حاسة العين، فإنه يخفى على الناس، كما أنه إذا أدام التفكر في الكلام وقبضه، خفي صوته، فلم يسمع، وإن جهر به". وهذا ما يسمونه التعويد، وهو طريقة من طرق الخلاص، فهم بتعويدهم التفكير في الجسم، وإطالة هذا التفكير تخفى ذواتهم عن الأعين، وكذلك بتعويدهم قبض الصوت يخفى صوتهم، فلا يسمع بالرغم من الجهر

٠ عن العربي الجديد

حرية الفكر بين البيروني ودافينشي

عدنان عاكف

كان السيد الغارس حكيم قد علق على مقالتي المنشورة على موقع الحوار المتمدن" قوموا انظروا كيف تزول الجبال " بالنص التالي الذي يحمل سؤاله الرئيسي واعتبرته السؤال الجوهري الذي ينبغي ان تتمحور حوله كتابات مثقفينا في مجال التراث والنقد الديني. قد تساهم المقالة التالية في البحث عن الجواب المطلوب. وفي ما يلي نص تعليق السيد الغارس

(كل الشكر للسيد الكاتب على هذا البحث القيم ولكن لدي سؤال هل كانت الدولة الدينية الاسلامية تسمح لهؤلاء العلماء والباحثين بنشر ابحاثهم بين الناس وتشجعهم على عمل هكذا ابحاث ام انها كانت اجتهادات وابحاث فردية تقتصر على اصحابها وممنوع تداولها بين الناس لان الكنيسية لم تمنع غاليلو من البحث او كتابة مايشاء الا بعد ان اصبح يطرح على الناس ما توصل اليه ولك الشكر).

" في الهند كان البيروني سجين لدى السلطان، غير انه كان يتمتع بحرية تامة للتعبير عن رأيه بشأن طبيعة المستحثات ومنشأها. في حين ان ليوناردو دافينشي، الذي عاش بعد مرور ٥٠٠ عام، والذي عرف بعبقري عصره، كان يتمتع برعاية البابا وحضوته، وباهتمام القائمين على الكنيسة في ايطاليا. ولكن أمنه الشخصي كان يتوقف على مدى ولاءه للأرثوذكسية الرسمية. لقد كانت خلاصة ما توصل اليه بشأن المستحثات وأصلها تعتبر من الهرطقة. ولذلك تردد في الإعلان عنها على الملأ خوفا من العواقب التي تنتظره. وقد كان بالفعل، سيتعرض الى عواقب وخيمة فيما لو انه جازف وأفصح عما كان يخبئه في دفتر ملاحظاته ".

أعدت قراءة هذه الفقرة عدة ومرات. فقرة قصيرة ومختصرة مخفية بين صفحات كتاب لجيولوجي أمريكي مجهول، في الوسط العلمي، استطاعت ان تكشف عن حقيقة أخفتها (أو حتى تجاهلتها) مئات الكتب وآلاف المقالات " العلمية "، التي صدرت في الغرب حول " تاريخ علوم الأرض ". فقرة قصيرة لكنها اشتملت على تقييم موضوعي ودقيق لموقفين متناقضين من العقل ومن حرية الفكر والإبداع، في حضارتين مختلفتين ومتباعدتين. والكتاب يعود لجيولوجي أمريكي، توفي قبل ان يكمله، فعملت زوجته الجيولوجية، على كتابة ما تبقى منه ليصدر عام ١٩٨٣، يحمل الكتاب عنوان مثير: " انها بدأت من الحجارة ". والمؤلف هو هنري فاول، يتحدث عن تطور معارف الإنسان عن الكرة الأرضية عبر التاريخ، منذ ان أخذ ابن آدم بين يديه قطعة من الحجارة، كان قد داس عليها بقدمه فسال منها الدم فراح يتفحص لونها وحوافها، ثم اختارها ليجعل منها فيما بعد سكينا وفأسا. انها رحلة طويلة مع مغامرة العقل البشري وعذاباته وخيباته وانجازاته، واكتشافاته بشأن الكرة الأرضية التي كشفت عن وجهها الجميل أحيانا، والمخيف المرعب في أحيان أخرى. وكذلك عن باطنها وأسرارها وكنوزها، وعن تاريخها الطويل، الذي يمتد لأكثر من أربعة آلاف مليون سنة. انها رحلة شاقة وطويلة امتزج فيها الاسطوري مع الواقعي والخرافة مع العلم، وعرفت الكثير من الصراعات الفكرية بين ما هو علمي وما هو ديني، وامتزجت الملاحظة والتجربة مع الخيال، الذي لولاه لما تقدمت معارفنا عن أمنا الأرض خطوة واحدة... والذي أدهشني في الأمر ليس ما ورد فيها بشأن موقف كل من البيروني ودافينشي من المستحثات ومدلولاتها الجيولوجية. فقد سبق لي ان كتبت عن رأي العالمين الكبيرين أكثر من مرة، وكانت الأولى قد نشرت في سبعينات القرن الماضي في جريدة" الفكر الجديد " الأسبوعية،التي كانت تصدر عن الحزب الشيوعي العراقي، وكانت بعنوان " مفهوم الزمن الجيولوجي عند البيروني ".وقد نشرت في نهاية عام ١٩٧٨ أو في مطلع العام التالي. كانت الأوضاع السياسية آنذاك في غاية السوء بسبب الهجمة البوليسية التي شنها النظام ضد الشيوعيين والديمقراطيين. أتذكر كيف ان أحد الأصدقاء عاتبني بقوة بعد اطلاعه على المقالة قائلا: لا يفعل فعلتك إلا مجنون. فان لم تعاقب بتهمة الشيوعية فسوف تعاقب بتهمة الإلحاد، وعليك ان تختار.....

الذي أدهشني شيء آخر: اذا كانت أراء البيروني بشأن المستحثات وماضي الأرض قد وصلت الى هذا الجيولوجي، وهو ليس من المتخصصين بفلسفة العلم وتاريخه، ناهيك عن كونه ليس من المستشرقين الذين اهتموا بكتابات البيروني، فلماذا يا ترى جرى التغاضي عنها من قبل كل من كتب في تاريخ العلم؟.

على أية حال، هذا سؤال نتركه للمستقبل، ولا نريد ان يبعدنا عن موضوعنا الأساسي، الذي بدأنا الحديث عنه في مقالة سابقة، وهو ان البعض من مثقفينا يؤكدون على ان حرية الفكر والتعددية الفكرية، في مجال الثقافة والفلسفة والعلم والأدب، والاعتراف بالحقيقة النسبية، هي من سمات الحضارة الغربية فقط وكيف ان هذه الأمور غريبة عن الثقافة العربية، ماضيا وحاضرا، بل يذهب البعض أبعد من الحاضر ليشمل المستقبل أيضا.

ارتأيت ان أبدأ الحديث بهذه الفقرة لأنها تتضمن مقاربة ذكية، وتحمل بين طياتها الكثير من المعاني المهمة للموضوع الذي نحن بصدده. انها تبين كيف ان بعض الغربيين الموضوعيين يقرون ويعترفون ان حرية الفكر والتعبير لم تبدأ في الغرب، وليست سمة متأصلة في دماء الغربيين وحدهم، بل هي ظاهرة ثقافية فكرية عالمية لا تعرف الحدود، ويمكن ان تنشأ وتتطور في أي مكان اذا توفرت لها البيئة الملائمة. ويمكن على العكس ان تذبل وتموت فيما لو تغيرت تلك البيئة الى نقيضها. وها هو جيولوجي غربي يقول لنا بان حرية الفكر قد عرفها الشرقيون أيضا عندما سنحت الظروف التاريخية بذلك. والشيء المهم الثاني ان حرية الفكر في العالم الغربي وكما هي عليه اليوم لم تكن حالة مميزة للغرب منذ بداية التاريخ، بل سبقتها مراحل طويلة ساد فيها الفكر الواحد، والذي لم يسمح لأي فكر مغاير بالظهور، ألا وهو الفكر الرسمي للكنيسة. ومن المؤسف ان هذه الحقيقة غالبا ما تغيب عن بعض مثقفينا، أما النقطة المهمة الثالثة فتتلخص في ان الحالة الفكرية والثقافية المزرية التي تعاني منها مجتمعاتنا حاليا ليست قدر لا يمكن تجاوزه، وقد يكون الماضي البعيد أكثر اشراقا من وضعنا الحالي في مجال حرية الفكر والتعبير...

والآن ما هو موضوع المستحثات، الذي تباينت بصدده المواقف في الحضارتين؟ الإجابة على هذا السؤال تتطلب الولوج في دهاليز علم الجيولوجيا، وأنا بصراحة لا أريد ولوجه، لأنه سيبعدنا عن موضوعنا. لكننا، في نفس الوقت، لا نستطيع ان نتقدم في حديثنا إلا بالتعرف عليه، حتى ولو بشكل سريع.: المستحثات وفق العلم المعاصر هي بقايا الكائنات الحية (نباتات وحيوانات) القديمة المتحجرة التي يعثر عليها في الطبقات الصخرية. والاعتراف بذلك يعني الإقرار بأصلها العضوي. وهذا يعني ان وجود بقايا أسماك قديمة أو حيوانات بحرية مدفونة في أعماق الأرض في الصحراء بعيدا عن الساحل، أو في الطبقات الصخرية المتكشفة في أعالي الجبال تدل على ان هذه المواقع كانت في يوم ما قاع للبحر.

وهكذا يمكن القول ان المستحثات هي الكتابة المسمارية التي دونتها الطبيعة على الصخور، مثلما دون انسان بلاد الرافدين القديمة تاريخه وحضارته على ألواح الطين في زمن مضى. مع فارق مهم، وهو ان الماضي في حالة ألواح الطين يقدر ببضعة آلاف سنة، بينما في حالة المستحثات فانه يقدر بعشرات ومئات الملايين من السنين..

هذا ما يقوله علم الجيولوجيا اليوم. وهذا ما توصل اليه أبو الريحان البيروني في مطلع الألفية الثانية. ولم يجد البيروني أية موانع فكرية وعقبات دينية في التوصل الى رأيه ونشره والتعبير عنه في أكثر من مؤلف. ومن هذه المتحجرات استنتج ان بادية العرب كانت بحرا، وان أرض مصر كانت بحرا في ما مضى.. وان هذا الماضي بعيد عن يومنا هذا، وقد يكون قد حصل قبل خلق البشر، وحصل في زمن لا يعرف قدره بالسنين إلا الله.

بعد نحو قرون خمسة جاء الفنان الكبير دافينشي وتوصل الى نفس النتيجة التي توصل اليها البيروني من قبله، لكنه تردد في الإفصاح عن رأيه خوفا من ان يتهم بالهرطقة والتبشير بتعاليم تخالف تعاليم الكنيسة. ولكن لماذا سيواجه بمثل هذه التهمة؟ السبب يكمن في المعتقدات اليهودية والمسيحية بشأن خلق العالم وتاريخ الأرض.. من المعروف ان قصة الخليقة في التوراة وردت بالتفصيل، حيث جرى الحديث عن التسلسل الزمني لخلق الأرض والسماء والحيوانات والنباتات، وغيرها. والإقرار بالأصل العضوي للمستحثات يعني الإقرار بوجود كائنات حية قبل تكوين الصخور وخلق اليابسة. وهذا مخالف للتعاليم الدينية التي تنص على ان النباتات والكائنات الحية المختلفة خلقت بعد خلق الماء والأرض، وان الأرض خلقت في يوم واحد، وانها لم تتغير منذ يوم الخليقة وحتى يومنا هذا. والمشكلة الثانية هي ان الاعتراف بالأصل العضوي يعني مخالفة رأي الكنيسة الرسمي بشأن عمر الأرض وتاريخها، والذي حدد وفق حسابات رجال الدين المسيحيين بالأيام لا بل حتى بالساعات، بناء على تسلسل خلق العالم وبناء على أعمار الرسل والأنبياء منذ سيدنا آدم وحتى مولد المسيح. وهكذا أصبح عمر الأرض وفق هذه العقيدة لا يزيد عن ٧٠٠٠ سنة، فيما اعتبرته تقديرات أخرى نحو ٦٠٠٠ سنة. ولنترك الجيولوجي الأمريكي – المسيحي – يبين لنا جوهر المشكلة كما ورد نصا في كتابه:

" لقد كان الكتاب المقدس صريحا في تأكيده على ان الرب فصل الأرض والبحر في اليوم الثالث وخلق جميع الطيور والحيوانات المائية في اليوم الخامس. لذا فان الأصداف التي يعثر عليها فوق اليابسة لا يمكن ان تكون بقايا الحيوانات البحرية السابقة. ان جوهر ما ورد في الكتاب المقدس غير خاضع للتعديل.. ".

كان على دافينشي ان يخفي النتيجة التي توصل اليها عن زملائه وعن الجميع. وبالفعل بقيت مخفية في أوراق ملزمته الجيولوجية التي يعتقد انها فقدت، أو ربما تعمد إخفاءها بدقة متناهية، بحيث انها لم تكتشف إلا في القرن التاسع عشر. بمعنى ان أراء دافينشي الجيولوجية لم تكتشف إلا بعد موته بنحو ثلاثة قرون... لذا فان كل ما كتبه في المواضيع المتعلقة بالأرض والصخور والمياه الجوفية ليس له أية أهمية من الناحية التاريخية لتطور علوم الأرض.

علينا هنا ان نشير الى ان التعاليم اليهودية والمسيحية عن خلق الأرض وعمرها لم تكن بعيدة عن المسلمين. غالبية المسلمين الذين تناولوا موضوع خلق العالم وتطرقوا الى عمر الأرض قد أخذوا بالرأي الذي ساد في الأوساط اليهودية والمسيحية.. والاختلاف بين قصة الخليقة في الانجيل والتوراة من جهة وما ورد في القرآن ان القصة المسيحية اليهودية أوردت تفاصيل عملية الخلق والتسلسل الزمني لعمليات خلق الماء والأرض والسماء والأحياء، إضافة الى أعمار الرسل والأنبياء. في حين ان مثل تلك التفاصيل لم تتطرق اليها قصة الخلق في القرآن. ولو عدنا الى كتب التراث (قصص الأنبياء، كتاب التأريخ للطبري وابن الأثير والمسعودي، الخ...) سنجد انهم حددوا عمر الأرض بنحو ستة أو سبعة آلاف سنة أيضا. وقد أخذوا بنفس مفهومهم بشأن أيام الخلق الستة، أي أخذوا بالتفسير الحرفي لكلمة " يوم " واعتبروها الفترة الزمنية الممتدة بين طلوع الشمس وبين غروبها. وليس من الصعب على المتتبع المتأني ان يعثر على تأثير المعتقدات المسيحية واليهودية.

لماذا شذ البعض، ومنهم أبو الريحان البيروني (ويمكن الإشارة الى رأي اخوان الصفاو ابن سينا أيضا، وحتى بعض علماء التفسير الذين لم يأخذوا بالمعنى الحرفي لمفهوم كلمة " اليوم "، كل ما في الأمر ان هؤلاء سلكوا طريقا آخر، مخالف تماما للطريق الذي سلكه الآخرون. لقد لجأ هؤلاء الى الطبيعة وظواهرها الملحوظة، ودرسوها بتمعن وفكروا في مدلولاتها، فوجدوا ان الأخذ بالمعنى الدارج لكلمة " يوم " لا يتوافق مع ما بين أيديهم من معطيات... كل شيء يؤكد على انه أمام

عمليات طبيعية بطيئة، وتتطلب فترات زمنية طويلة جدا، ولا يمكن ان تحدث خلال يوم طبيعي واحد من أيامنا. وبعد ان استقر على رأيه هذا راح يبحث في كلام الله علّه يعثر على ما يدعم رأيه.. وقد عثر البيروني بالفعل، واستشهد به. لقد رفض الرأي الذي اعتبر اليوم هو الفترة الزمنية المحصورة بين طلوع الشمس وغروبها، وأخذ بمفهوم اليوم الذي يعني حقبة أو فترة زمنية محددة أو غير محددة لا يعرف أمدها إلا الله. وقد نطق القرآن الكريم – كما يقول البيروني – بان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون. وفي موضع آخر في يوم مقداره خمسين ألف سنة...

وهكذا، نجد ان البيروني الذي كان يتعامل مع ظواهر وأسئلة تتعلق بالطبيعة وجد ان الطبيعة وحدها القادرة على تقديم الأجوبة على تلك الأسئلة، ومن ثم بحث في النص الديني فوجد ان تفسيراته لا تتعارض معه. في حين نجد ان الآخرين سلكوا الطريق المعاكس، انطلقوا من النص الحرفي الديني واعتمدوه لتفسير الطبيعة، وبذلك شوهوا الدين وحصلوا على علم مزيف. وهذا الواقع المعكوس هو المسؤول عن جميع المعارك التي خاضتها الكنيسة ضد ممثلي العلم في العصور الوسطى وفي عصر النهضة. واعتقد ان موقف الكنيسة من غاليلو ودارون وغيرهما يندرج في هذا الإطار. وهذا الموقف ذاته الذي يتخذه السلفيون في البلاد العربية والإسلامية اليوم في معارضتهم للكثير من منجزات العلم في عصرنا الراهن... وهذا الوضع المشوه هو الذي يقف وراء الوباء "العلمي" الذي استشرى في البلاد العربية منذ سبعينات القرن الماضي، والمعروف باسم "الاعجاز العلمي في القرآن." أين هو موقع د. كامل النجار بين هؤلاء؟

...

بقيت هناك نقطة مهمة لا بد من توضيحها. قد يبدو للبعض وهو يقرأ مقارنة المؤلف الأمريكي هنري فاول بين حرية البيروني الأسير لدى السلطان في التعبير عن رأيه، وخوف دافينشي، المدلل من قبل السلطة والكنيسة، من البوح برأيه، ان ذلك السلطان كان يؤمن بحرية الفكر والتفكير. الحقيقة كانت على نقيض ذلك تماما، لقد كان موقف ذلك السلطان "الإسلامي" من حرية الفكر لا يختلف عن موقف زملائه من "المسيحيين" الذين أبدعوا محاكم التفتيش في أوربا وسلطوها على رقاب كل من كان يسعى الى بصيص نور من المعرفة. فالسلطان الذي يدور عنه الحديث هو محمود الغزنوي، والذي كان أبعد ما يكون عن التسامح والتحرر الفكري، بل كان رمز للقسوة والتعصب، والعدو اللدود للفكر والثقافة، بالرغم من كونه قد أحاط نفسه بعدد كبير من العلماء والأدباء. وقد ترك المؤرخون شهادات مرعبة عن ممارساته ضد خصومه، وكيف كان يتعامل مع من لا يتفق معه في المذهب والملة. والتهمة الجاهزة لديه ولدى أعوانه هي التشيع والإلحاد والعلاقة بالقرامطة. وذكر بعض المؤرخين كيف كان يعلق من يخالفه الرأي من العلماء على غصون الأشجار ويولع النار في كتبهم التي يضعها تحت تلك الأشجار. ومن بين مكتبات بلاد الري المشهورة التي أحرقها كانت مكتبة الصاحب بن عباد، التي، حسب شهادة علي بن زيد البيهقي، كانت تحتوي على الكثير من الكتب التي قدرت بما يحمل على ٤٠٠ بعير...

بالرغم من ذلك لم يجد البيروني، كما يقول هنري فاول، ما يمنعه من التعبير عن رأيه، الذي خالف فيه الغالبية من المفسرين، الذين كانوا قد أخذوا بالتفسير الحرفي لأيام الخلق. المسألة هنا تتعلق باستقلالية العلم النسبية عن المؤسسة الرسمية والدينية آنذاك، وكذلك الحرية النسبية التي كان يتمتع بها علماء الطبيعة للتعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم، والتي لم يكن يتمتع بها علماء أوربا حتى قبل بضعة قرون. ولو عدنا الى تاريخ العلوم الطبيعية سنجد ان المؤسسة الدينية في الإسلام لم تتدخل في أمور تتعلق بعلوم الطبيعة، بل تركت المجال للعلماء المتخصصين في الموضوع. وقد سبق لنا ان بينا في مقالات سابقة كيف ان غالبية علماء الإسلام (وفي مقدمتهم ابن حزم وفخر الدين الرازي والغزالي) قدتركوا لعلماء طبيعة حرية التعبير عن آراءهم، لا بل اعتبروهم القدوة التي ينبغي ان تتبع.

فأخذوا بفكرة كروية الأرض، بعد ان تبناها معظم علماء الفلك والجغرافيا المسلمين، واعتبروا رأيهم هو المعتمد، ما دام لا يوجد في كتاب الله ما يعارض ذلك. مع العلم ان ظواهر الأشياء (وجه الأرض المنبسط الممدود) والتفسير الحرفي لبعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن شكل الأرض كان لصالح فكرة الأرض المنبسطة وليس الكروية. ويكفينا هنا ان نتوقف عند رأي الإمام الغزالي. الذي يهمنا هنا ليس المادة العلمية المطروحة للنقاش، بقدر ما يهمنا المنهج الذي اعتمده الغزالي في التعاطي مع المعلومات العلمية في عصره، وهو موقف حري بنا جميع ان نتوقف عنده ونتأمله، ولنحاول ان نقارن موقفه مع موقف الكثير من رجال الدين الكبار في عصرنا. يقول الغزالي في معرض حديثه عن الكسوف والخسوف وعن شكل الأرض:

" وهذا الفن لسنا نخوض في إبطاله إذ لا يتعلق به غرض، ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين، فقد جنى على الدين وضعف أمره، فأن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية، لا يبقى معها ريبة، فمن يطلع عليها، ويتحقق أدلتها، حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوف، وقدرهما، ومدة بقائهما إلى الانجلاء، إذ قيل له: إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيه وإنما يسترب في الشرع، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقة، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقة، وهو كما قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل "..... .

الغزالي من البداية يضع القارئ أمام حقيقة مهمة، وهي أن الموضوع الذي هو بصدده (كروية الأرض وكسوف الشمس و القمر) ليس من اختصاصه كرجل دين

لو تمعنا مليا في موضوعنا سنجد ان الفرق الجوهري بين موقف البيروني من أصل المستحدثات، وموقف علماء أوربا ليس اختلاف في جوهر التعاليم الدينية الواردة في الكتاب المقدس والقرآن، بشأن عملية خلق العالم وماضي الأرض والموقف منها، بل اختلاف أساسي في المنهجية وأسلوب البحث والتعامل مع الظواهر الطبيعية. البيروني درس الأرض كما هي في الطبيعة.

على النقيض من ذلك سار علماء أوربا. اذا كان البيروني بدأ بقراءة الطبيعة، فان علماء أوربا بدءوا بقراءة التوراة والإنجيل، وأخذوا بالترجمة الحرفية لما ورد في قصة الخليقة، وحاولوا على أساس ذلك إيجاد تفسيرا للظواهر الطبيعية. وعند تعاملوا مع المستحدثات قادتهم الى مأزق دينيقادهم بدوره الى مأزق فكري، لم يجدوا من هذا المأزق مخرجا إلا من خلال تشويه الدين والطبيعة معا. رفضوا المنشأ العضوي وابتدعوا تفسيرات عجيبة غريبة ومضحكة. فقال البعض انها عبارة عن بدع الطبيعة، وقال الآخر انها من صنع الشيطان، وسماها الآخر انها من "لعب الطبيعة" تلهو بها. وجدسر بالذكر ان المنشأ العضوي لم يعترف به في الوسط الجيولوجي في أوربا إلا قي القرن الثامن عشر...

هنا أيضا لا تهمنا المستحدثات وأصلها، ولا تهمنا الجيولوجيا كلها، حتى وان كانت هي التي تمد العالم بالنفط وجميع الثروات الطبيعية. المهم هنا هي حرية الفكر، ومدى تأثير القوالب الجامدة على ابداع ذلك الفكر...

وجدير بالذكر ان عبقري عصر النهضة لم يكن يبالغ في مخاوفه من العواقب التي يمكن ان تجابهه فيما لو أقدم على الإفصاح عن رأيه. وقصة عالم الطبيعة الكبير بوفون (القرن الثامن عشر) مع رجال الدين خير دليل على ذلك. كان بوفون قد توصل الى ان عمر الأرض ليس سبعة آلاف سنة، كما يعتقد، بل ما لا يقل عن سبعين ألف سنة. عندها ثارت حمية رجال الدين واستعرت نار الغضب، ووجهت اليه تهمة الهرطقة والإلحاد. وفي نهاية المطاف أجبروه على التخلي عن رأيه أمام جمع غفير من الناس وفي أكبر ميادين باريس، حيث أعلن انه كان على " ضلال.. ".

لنتذكر مرة أخرى مقولة العالم الأوربي المعاصر: " من الماضي نأخذ النار وليس الرماد "... وهذا ما فعله الأوربيون بالفعل. ومرة أخرى تشير مراجعتنا المتأنية للتراث بأن السلف قد ترك لنا الكثير من جمر الغضا الذي ما زال يتقد تحت الرماد، لكنا لم نأخذ منه سوى الرماد.

• عن الحوار المتمدن

مولد الأنثربولوجيا عند أبي الريحان البيروني

د. زهير الخويلدي

"للتأكد من صحة الأدلة العقلية لا بد من تطبيقها على المحسوسات تطبيقاً مادياً وذلك في كافة حقول العلم المتنوعة ".

يعد أبو الريحان البيروني من أعظم العقول التي عرفتها الثقافة التي تخصنا في الحقبة الوسيطة ونابغة زمانه وذلك لتخصصه في العديد من العلوم والصناعات ولكثرة تنقله بين الدول والأمصار وكتاباته، فلقد عاش بين سنة٩٧٣ و١٠٤٨ ميلادي في خوارزم بإقليم خراسان وأقام بجرجان والري وزار الهند والصين.

يعتبر من أول القائلين بأن الأرض تدور حول محورها وذلك بعد إدخاله الرياضيات في دراسة علم الفلك وتوصل إلى حساب المثلثات وخطوط الطول والعرض والقول بالفرق بين سرعة الضوء وسرعة الصوت والى تحديد المسافة التي تفصل الأرض عن القمر والشمس بشكل تقريبي وهو ما اثبت العلم صحته لاحقا.

لقد جمع البيروني بين الجيولوجيا والتاريخ والفيزياء والرياضيات والطب والصيدلة والفلسفة واعتبره المؤرخون مؤسس علم الإنسان أو الأنثربولوجيا وذلك لنظرته الموسوعية الشاملة وإحاطته بكل ما يتعلق بالشأن البشري من أنشطة وآثار ومؤلفات وعلوم وبرع بالخصوص في علم الفلك التجريبي والميكانيكا.

برع في الجغرافيا وابتكر سبع طرق في تحديد اتجاه الشمال والجنوب واخترع نظاما رياضيا يدلعلى بداية وانتهاء الفصول ووظف علم التنجيم لتطوير علم الفلك والرياضيات وابتكر أنظمة جبرية لحل المعادلات من الدرجة الثالثة وقدم أطروحة عن الظلال واستعانة بالتجربة وتمكن من حساب نصف قطر الأرض.

لم تمنعه اهتماماته بالعلوم التطبيقية من المساهمة في الأدب العربي والنقد الشعري وعلم الكلام والفلسفة وخاصة اتقانه للعديد من الألسن واللغات وخاصة العربية والفارسية والإغريقية والسريالية والسنسكريتية.

ساهم في قيام علم الأرض وأسس الكثير من التخصصات الدقيقة من الرياضيات وسمي بأب الجوديسيا وتخصص في دراسة الهنود والشرقيين واهتم بمعتقداتهم وأديانهم ولغاتهم وثقافتهم ونظم الحكم لديهم.

تأثر بأرسطو وتعلم على يد منصور ابن عراق وناقش الخوارزمي وراسل بان سينا والتقى بمسكويه واحتضنه الأمير أبي العباس مأمون ابن مأمون وشجعه السلطان محمود بن سبكتكين حاكم غزوة وألف في العديد من المجالات مثل الصيدلة والطب والفلك والمعتقدات والآراء وترك عددا هاما من المؤلفات والكتب مثل "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" و "المقالات والآراء والديانات" و"مفتاح علم الهند" و"جوامع الموجود في خواطر الهنود" و"الجماهر في معرفة الجواهر" و" الآثار الباقية عن القرون الخالية" و"الاستيعاب في تسطيح الكرة" و"التفهيم لأوائل صناعة التنجيم" و"التعليل بإجالة الوهم في معاني النظم" و"القانون المسعودي" و"التنبيه في صناعة التمويه" و"الإرشاد في أحكام النجوم" و"العجائب الطبيعية والغرائب الصناعية" و"الشموس الشافية" و"الاستشهاد باختلاف الأرصاد".

لقد أوجد البيروني الوزن النوعي لعدد من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة مثل الألماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ وحدد الكثافة النسبية لعدد من المعادن مثل الحديد والبلور الصخري والزئبق والنحاس.

غير أن الدراسة الأنثربولوجية الهامة التي أجراها للهنود في مستوى طرائق عيشهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وخصائص لغاتهم وأعيادهم وأطعمتهم ومعاملاتهم هي التي جعلت منه أول عالم أنثربولوجي. في هذا السياق نجده يقول: "إن العالم الحقيقي هو الذي يبتعد عن التعصب لرأي ويبتغي الحقيقة المطلقة بمعزل عن الأهواء والرغبات، وهو الذي يسعى وراء الحقيقة لأنها حقيقة، لا للتظاهر والمفاخرة بالمعرفة، فالتواضع من أهم صفات العالم". فماهي إسهامات "بطليموس العرب" في قيام علم الفلك الرياضي وتفجير الثورة العلمية الحديثة؟

المنهج العلمي عند العالِم النابغة أبي الريحان البيروني

يمنى طريف الخولي

البيروني أبرز علماء الحضارة العربية في الرياضيات وفي الفلك٤ الذي عَرَفَه العرب باسم "علم الهيئة" وعَدُّوه فرعًا من الرياضيات.٥ وظل الفلك دائمًا وثِيقَ الاتصال بالرياضيات، وهما مجالات يُطلَق عليها في قديم العلم وحديثه مصطَلَح "العلوم الدقيقة المنضبطة" وكان هذا من العوامل التي أكسبت عقلية البيروني منهجية مقننة، إنه أكثر أقطاب الحضارة العربية تكرسًا للمباحث والعلوم العقلية.

ولئن كان البيهقي والشهرزوري ينعتان البيروني بأنه من أجلّاء المهندسين، فإنه ليس رياضيًّا قُحًّا، كسَلَفه الخوارَزمي أو أبي سعيد السجزي أو سواهما، بل يتقاطع مع قُطب الرياضيات والفلك قطبٌ آخر، هو التاريخ والحضارات والأنثربولوجيا، ثم ما يستتبع تقاطعهما من مباحث تجريبية أَنْجزَ فيها البيروني، هي الجغرافيا والجيولوجيا والمعادن وأيضًا الطب والصيدلة. فلا ننسى الطابع الموسوعي للعالم في العصر الوسيط.

الفلك والرياضيات أولًا وقَبْل كل شيء، والتاريخ والحضارة ثانيًا، ثم العلوم الطبيعية التجريبية، تلك هي مقاطعات علم البيروني.

وتعلو مدارج السمة العلمية حين يتبدى كيف كان اهتمام البيروني بالمباحث الإنسانية اهتمامًا علميًّا خالصًا بذلك المفهوم الحديث الذي اتفقنا عليه لمُصْطلَح العلم الذي يفيد علومًا إخبارية وصْفية وتفسيرية مُنْصَبَّة على ما هو كائن، وعلى الوجود الواقعي المتعيِّن، وليس على ما ينبغي أن يكون، أو على مستويات أخرى من الوجود، بهذا المفهوم كانت عقلية البيروني — على ثرائها وغزارة إنتاجها — عقليةً علمية في صُلبها وهيكلها، في مبناها وأهدافها. أما الأبعاد الدينية والفلَسفية والأدبية٦ التي هي حاضرة عند البيروني، فكانت هوامش لكي يكتمل التشكيل العلمي للعقلية، وروافد تُغَذِّيه وتُصْقله، لا سيما وأن الإطار الثقافي للعصر يَفْرضها ويستَلزمها لكي يكون العالم عالمًا بحق، والفلسفَة بالذات دَوْرُها خطير في تعميق العقلية العلمية وفي كل عصر.

وإذ اكْتَسَبَ البيروني السمة العلمية إلى هذا الحد، فسبيلنا الآن إلى رحلة في عالَمِه، لنرى هل كان منهجيًّا وعقلانيًّا بنفس القدر؟ وإذا أَسْفَرَتْ محصلة بحثنا عن الإيجاب، يغدو من نافلة القول التساؤل عما إذا كانت العقلانية العلمية المنهجية بضاعة غربية، علينا استيرادها وتدجينها، أو ما إذا كانت فلسفة العلم — من ناحية أخرى — في بحثها لهذه المفاهيم ملتزمة فقط بالمعطى العلمي الراهن، وأصوله التي هي أولًا وأخيرًا غربية.

وإن أبا الريحان البيروني لَرَجُلٌ تُحْنى الْهَامُ إجلالًا وتَكْرِمَةً له، لخصلتين دُرِّيَّتين تحققَتا فيه بوصفه عالمًا. الأولَى: هي عشْقُه النزيه للعلم، فقط من أَجْل العلم، حتى إنه يرفض عطايا السلاطين التي قد تصل إلى حَدِّ حمْل فيل من الفضة — حسب واقعة يُخْبرنا بها ياقوت الحموي — إذا كانت هذه العطية مكافأةً على إنجاز علمي تَوَصَّل إليه، معتذرًا بأنه "يخدم العلم للعلم لا للمال"٧ والخصلة الثانية هي مدى هذا العشق النزيه للعلم، حتى إن واحدًا من رفاقه في الدرس والبحث — ويُدْعَى الولوالجي — قد عادَه وهو على فراش الموت، فما كان من البيروني إلا أن غالب حشرجات المنية، وسأله عن إحدى المسائل الرياضية، فقاطَعَهُ الصديق مشفقًا: أفي تلك الحالة؟ فرَدَّ عليه البيروني بقول لَعَلَّه منْ أَنْفَذ ما قيل تبتُّلًا إلى رحاب العلم، ألا وهو: "يا هذا، أَنْ أُوَدِّعَ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة خير منْ أَنْ أخليها وأنا جاهل بها."٨ فلما تناقش معه الصديق، واطمأن إلى حسمه لتلك المسألة، انْصَرَفَ من عنده. غير أن الصراخ سَبَقَه للطريق!

على أن "العلم للعلم" عند البيروني قيمة منهجية خالصة، ولا تعني بحال توجُّهًا ميتافيزيقيًّا مُجرَّدًا، وكأنه مُواصل لمُثُل الإغريق التي مَجَّدَت التأمل العقلي الخالص فقط مِنْ أَجْل المتعة العقلية اللائقة بالسادة، بل تعنى فقط أن قيمَة العلم لا تُحَدِّدُها أبدًا المنفعة العملية؛ لأن المنفعة العملية عنده لا تُحَدِّد قيمة أي شيء، فهو يقول في "تحديد نهايات الأماكن": "الفضيلة الذاتية للشيء غير المنفعة العارضة لأجله." وعقلية البيروني ذات المنحنى العلمي الواقعي لا تَعِي ولا تَقْبل العلم للعلم أو الفن للفن كدوائر مغلقة. العلم عنده يَنْصَبُّ في رافد الحضارة العربية ويَخْدُم القيم الإسلامية واحتياجات المجتمع الإسلامي، وقيم العلم عند البيروني ودوافعه وبواعثه يُمْكن أن نجدَها في تعاليم القرآن الكريم التي تَحُثُّ على التَأمل في السموات والأرض التي خلقها الله بالحق،٩ وكثيرًا ما يستشهد البيروني في مقدمات أبحاثه بالآيات الكريمة الدالة على هذا، ولا شك أن البعد الإيماني من العوامل التي زَرَعَتْ في شخصية البيروني عشقًا للعلم، تُجَسِّدُه الأقصوصتان المذكورتان.

وهذا العشق المتأصل للعلم وراءه نبوغ مبكر، يكاد يكون الشيءَ الوحيد المُثْبَت عن حداثته،١٠ فقد وُلدَ البيروني في خوارِزم لأسرة فقيرة مغمورة من أصل فارسي، فلا نعلم شيئًا عن نشأته إلا شغَفه بالعلم وحِرْصه على تدوين ما يصل إليه من معلومات منذ اليفاعة وبواكير الصبا.

ومن ثَمَّ نَجدُه أتْقَنَ علوم اللغة العربية، شأن كل أعلام الحضارة الإسلامية التي تتمركز حول محورها الثابت ألا وهو القرآن المبين. أما لغة البيروني الأم؛ أي اللغة الخوارزمية فهي لهجة من لهجات اللغة التركية مُطعَّمَة بمفردات كثيرة فارسية، وهي لغة شعبية أو عامية. لم تكن آنذاك من لغات الكتابة والإنتاج العلمي والثقافة. الثقافة آنذاك اقتصرت على اللغة العربية أولًا ثم الفارسية، وقد أجاد البيروني كليهما وبَلَغَ فيهما من البلاغة وسلاسة التعبير مَبْلغا يَعزُّ على الأهلين من العرب والفرس، وإخراجه لعلمه "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم" باللغتين العربية والفارسية يُبَيِّن إلى أي حد تَمَلَّك ناصيتَهُما وأَجَادَهُما، ويشتهر عنه قوله: "إن الهجو بالعربية أحب إليَّ من المدح بالفارسية." فيُوَجِّه لطمة قوية للنزعات الشعوبية التي حاولت عبثًا الإعلاء من شأن الفرس على العرب. فقد دان البيروني بالولاء العظيم والعميق للعروبة.

وعلى هذه الأسس يمكن أن نتفهم نصًّا بالغ الأهمية والدلالة، قاله البيروني في مقدمة كتابه "الصيدلة في الطب" واستهله بتأكيد أن كل أمة من الأمم — اليونان والعبرانيين والنصارى والهنود والمغاربة ... — موصوفة بالتقدم في عِلْم أو عَمَل، ثم يقول أبو الريحان: ديننا والدولة العربيَة توءمان، يُرَفرف على أحدهما القوة الإلهية، وعلى الآخر اليد السماوَية، وكم احْتَشَدَ طوائف من التوابع وخاصة منهم الجيل والديلم، في إلباس الدولة جلاليب العُجْمَة، فلم تنفق لهم في المراد سوق، ما دام الأذان يَقْرَعُ آذانهم كل يوم خمسًا، وتُقَام الصلوات بالقرآن العربي المبين خَلْف الأئمة صفًّا صفًا، وَيَخْطُب به لهم في الجوامع بالإصلاح كانوا كاليدين والفم، وحَبْل الإسلام غير منفصم وحصْنه غير مُنْثَلِم، وإلى لسان العربية نُقلَت العلوم من أقطار العالم وسَرَتْ محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لُغَتَهَا التي أَلِفَتْهَا واعتادتها واستعملتها في مآربها مع آلافها وأشكالَها، وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خُلِّدَ بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة في المكراب، ثم منتقلة إلى العربية والفارسية، فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف، والهجو بالعربية أحب إليَّ من المدح بالفارسية.١ التسامح والانفتاح على تراث كل الأمم، ووراءه إيمانُ العالم بوحدة العلم وتكامُل الجهود في طريقه، ولم يتعارَض هذا مع إيمان معتز بالدين الإسلامي، جَعَلَه يَرْفَع من شأنِ العروبة ولغتها الجميلة التي تَرْجَم إليها أسفارًا، ثم تَعُود موضوعية العلم لتؤكد أن كل اللغات سواسية من الناحية الموضوعية، متفاضلة على أسس ذاتية. فينحو على ذاته ويتذكر لغته الخوارزمية — التي هي غريبة ومغتربة عن العلم — لكنه اقتحم لغتي الثقافة؛ أي العربية والفارسية وللأسباب الدينية والحضارية المذكورة تعلو الأولى على الثانية إلى أبعد الحدود.

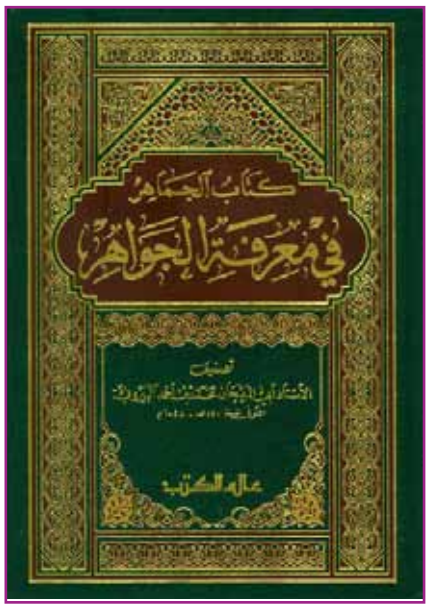

وفضلًا عن الخوارزمية والفارسية والعربية التي عَشقَها، أتقن البيروني أيضًا اللغات السنسكريتية والسريانية والعبرية وألمَّ باليونانية. مما يَسَّرَ له الرجوع إلى المراجع العلمية المنجَزة في تلك الحضارات العريقة، متفاديًا أخطاء المترجمين غير الملمين بدقائق العلم المتخصصة، وكان هذا من العوامل التي أعطته خلفية علمية مكينة يَسَّرَت له الانطلاق بعبقريته.

من هذه العوامل أيضًا أنه تراسل مع معاصره الشيخ الرئيس ابن سينا، وتفاعل — بعنف — مع عقليته الموسوعية الثرة، فقد وجدت للشيخ الرئيس أجوبة مسائل سأله عنها أبو الريحان البيروني، وهي تحتوي على أمور مفيدة في الحكمة.١٣ لكن النقاش بينهما كان حادَّ اللهجة حتى عزف ابن سينا عن مُوَاصَلته،١٤ لكن لا ينفي هذا أن البيروني عَرَفَ للفلسفة حَقَّ قَدْرها وَعَدَّها من أهم ظواهر المدنية، وأَوْلاها حظًّا من عنايتَه، وله فيها إسهام، ولا يَحْتَلُّ البيروني مَوْقعًا في تاريخ الفلسفة ولم يُعْرَف كفيلسوف؛ أولًا: لأن عقليته أساسًا — كما اتفقنا — علْمية وموقعه الحق في تاريخ العلم، وثانيًا: لأن إسهاماَته الفلسفية مفقودة تمامًا، وأهمها "كتاب في التوسط بين أرسطو طاليس وجالينوس في المحرك الأول" و"رياضة الفكر والعقل"، وعُثر أخيرًا في إسطنبول على عَمَل هامٍّ له في الفلسفة بعنوَان "الشامل في الموجودات المحسوسة والمعقولة"، ولكن لم تَثْبُتْ بعد نسْبَته إلى البيروني بصورة قاطعة.

لَيست كتبه في الفلسفة فقط هي المفقودة، مفقود أيضًا بعض من أهم أعماله في عقر داره — أي في الفَلَك والرياضيات والطبيعيات — من قبيل "البحث عن الآثار العلوية" ومقالة "في صفة أسباب السخونة الموجودة في العالم واختلاف فصول السنة"، وغير هذا كثير مفقود تمامًا، فقد وَضَعَ الرجل ما لا يُحصى من الرسائل العلمية القصيرة.

وحين وَضَعَ البيروني فهرست لأعمال أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (+٣١٣هـ/٩٢٥م)١٨ ذَكَرَ معها قائمة من أعماله هو نفسه بَلَغَتْ مائة وثلاثة عشر عملًا، بالإضافة إلى خمسة وعشرين عملًا كتبها علي بن العراق، وأبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي، وأبو علي الحسن بن علي الجيلي تحت إشرافه، ثم ذَكَرَ حاجي خليفة في "كشف الظنون" خمسة عشر عملًا آخر للبيروني، لم يَذْكُرها حين ذَكَرَ أعماله في فهرست الرازي؛ لأنه أَنْجزَهَا فيما بعد — أي في الأربعة عشر عامًا السابقة على وفاته — وكذلك تَمَّ العثور على سبعة مخطوطات أخرى لم تَذْكُرها أيٌّ من هذه المصادر، بخلاف أعمالٍ نسبها آخرون أو نَسَبُوا مضمونها للبيروني.

ويزداد الإعجاب بأبي الريحان حين نَجدُه قد ترك هذا الإنتاج الغزير في حين أنه عاش في عَصر اضطراب سياسي شديد، بل واشتغل فيه بالسياسة؛ إذ عَمل مستشارًا لخوارزم شاه مما جَعَل حياته بدورها شديَدة الاضطراب، فتَعَرَّض للأسر والسجن والنفي، وكان على وشك أن يُعْدَمَ لولا أن شَفَعَتْ له مؤلَّفاته، وذلك عندما استولى السلطان الغزنوي محمود بن سبستكين عام (٤٠٧هـ/١٠١٧م) على خوارزم التي قضى فيها البيروني نَحْبَه بعد ذلك عام ٤٤٠هـ، وهي تقع الآن على حدود أفغانستان، وكان من العلماء المحتجَزين البيروني وأستاذُه عبد الصمد الحكيم. قَتَلَ محمود الغزنويُّ عبْدَ الصمد واعتَقَل البيروني في قلعة غزنة ستة أشهر، ثم أَطْلَقَ سراحه؛ لأن مؤلفاته جَعَلَتْه يُدْرِك أنه في حاجة إلى علمه.

ومع هذه الأجواء بلغ إنتاجه — كما ذكرنا — نيفًا ومائة وسبعين عملًا، ولئن ضاع بعْضُها فليس يَصْعُب تقصي أبعاد المنهج العلمي عند البيروني، ولا يحتاج الأمر إلى إسقاطات أو تَعَسُّفيات متربصة دائمًا بمبحث تاريخ العلوم عند العرب، فما زالت البقية الباقية من الأعمال المحقَّقة والمثبَتة للبيروني من الكتب الكبرى أو الرسائل المجَمَّعة (راجع هوامش هذه الدراسة) تُمَثِّل رصيدًا هائلًا للباحثين.

هذا بخلاف ما يَنْتَظر الإثبات والتحقيق من مخطوطات أخرى للبيروني متَناثرة في المكتبات الأوروبية، وفي المكتبات الآسيوية التي تتمسك بانتساب البيروني إليها. فقد وُلدَ في مدينة كاث بخوارزم التابعة الآن لجمهورية أوزبكستان التي أقامت — حين كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي حتى انهياره — في عاصمتها طشقند جامعةً أَطْلَقَتْ عليها اسْم جامعة البيروني تخليدًا لذكراه، كما أَطْلَقَتْ على مدينة كاث اسم مدينة البيروني، وتقع على شاطئ نهر آمو داريا — وهو نهر جيجون القديم — وتبعد حوالي مائتي كيلو متر جنوبي بحيرة آرال.٢١

ولكن مسقط الرأس ليس هو دائمًا دامغ الهوية. فقد عاش البيروني في رحاب الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، وصَدَقَ إيمانه بدينها، ودان — كما رأينا — بالولاء العميق لِها، وانتمى لزمرة أعلامها، وساهم في مَدِّها العلمي، أَخَذَ منه وأعطاه، وكَتَبَ بلسانها وآثره على سواه.

وعلى الرغم من عشْق البيروني للغة العربية جاءت كتاباته بعيدةً عن الزخرف اللفظي والتنميق بغير داع، ومَكْسُوَّة مع هذا بمسحة جمالية عذبة، والأهم أنها أنموذج لمنهجية التفكير وتسلسل الأفكار، متحرية الضبط عن طريق استعمال مصطلحات دقيقة أو على الأقل مُحَدَّدة. إنها على الإجمال كتابة علْمية لأقصى حد يمكن أن يسمح به العصر الوسيط، خصَوصًا وأن عالمنا كان يكتب دائمًا واضعًا نُصْبَ عينيه أنه عالم مُتَبَحِّر، لا يكتب للدهماء، ولكن لصفوة العلماء، فيتَعمد البعد عن الأمثلة التي تُوَضِّح بقدر ما تَبَسَّط وتَسَطَّح، يقول البيروني: "إني أَخْلي تصانيفي من المثالات، ليجتهد الناظر فيها ما أَوْدَعْتُه فيها، مَنْ كان له دراية واجتهاد وهو مُحبٌّ للعلم، ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلَستُ أبالي فَهِمَ أم لم يفهم."

هكذا لم تكن كتابات البيروني سهلة يسيرة المنال، فلم يَعْرِفْه العالَم الغربي، ولم تَنْتَقل نصوصه إلى أوروبا في عصَر انتقال العلم العربي إليَها فيما قَبْلَ عصر النهضة. عرفه الأوروبيون فقط مع نمو حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر، واهتموا به مع تنامي الاهتمام بتاريخ العلوم في القرن العشرين، ويُرْجع مارتن بلسنر هذا إلى تَخَوُّف المترجمين في العصور الوسطى وعصر النهضة من "صعوبة لغة البيروني ومناهجه الدقيقة لمعالَجة الموضوعات الواردة في مؤلفاته"٢٤ ولكن لئن لم تَنْتَقل نصوص البيروني إلى أوروبا آنذاك، فليس يعني هذا أنه ليس له أيُّ دَوْر في التمهيد للنهضة الأوروبية ولحركة العلم الحديث. فلا شك أن للبيروني دورًا في هذا، لكن بأسلوب غير مباشر عن طريق التلاميذ والتالين له من أعلام الحضارة العربية، خصوصًا في مجال الفلك والرياضيات، الذين ملأت مؤلَّفَاتُهم مراكز انتقال العلم العربي إلى أوروبا من قبيل صقلية وأشبيلية وقرطبة.

• من كتاب بحوث في تاريخ العلوم عند العرب

لدى البيروني ما يسند التسامح

رشيد الخيون

نقف أمام فكرتين في شأن التسامح الديني والفكري: صاحب الأولى ينفي وجود التسامح في التراث العربي الإسلامي، التاريخ كافة في ذهنه حروب ومَقاتل. الثانية صاحبها ينفي وجود التطرف والتشدد ويحسبُ أن كل التراث الديني والسياسي رحمة في رحمة، وأن النصوص الدينية والممارسات كافة صالحة لكل زمان ومكان، وبالتالي لسنا بحاجة إلى مراجعة وتجديد وتطوير وتأسيس لثقافة تنوير وتسامح. أرى أصحاب الفكرة الأولى عدميين، لا يتركون مجالاً للبناء، وأصحاب الثانية إقصائيين بعقيدتهم، فمن وقع عليه حيف التشدد والتطرف لا يأمل بالتجديد المطلوب، ولا بالتسامح المنشود.

عندما نأتي بأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠هـ) مثالاً على التسامح الديني، تجاه أجداد مواطني بلداننا الآن، من غير المسلمين، لا نعني بذلك أنه الوحيد المنفرد بهذا الفكر والرؤية في شأن حمل عقائد الآخرين على محمل النية الحسنة، إنما هناك تُراث يسند ثقافة التسامح، سواء أكان في المجال الفكري أو الفقهي، مارسه خلفاء وقُضاة وفقهاء وفلاسفة وكُتاب ومؤرخون وشعراء. هذا إذا تفحصنا سير تلك العصور، أما إذا أخذنا الأمر على التعميم، وبنية مسبقة، فلا نجد في التراث غير التطرف والغلو. إلا أن ما يُميز مثقف عصره البيروني أنه أطلع على أديان الآخرين، فتجده مثلاً "دخل بلاد الهند، وأقام بينهم، وتعلم لغتهم، واقتبس علومهم" (الحموي، معجم الأدباء)، فتحدث عنهم بما عَلم، واقترب من الصابئة والمسيحيين، فنظر إليهم نظرة العالم الفاحص، لا نظرة المشكك، حامل فكرة التكفير ضدهم. كان متعدد العلوم فهو الطبيب، والفيلسوف، والفلكي، خالط ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، وبينهما مراسلات (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

نأتي بمثالين مما فسر به البيروني، بحسن نية، وبدافع ما نصطلح عليه بالتسامح، من ديانات أبناء زمانه، وممن اهتم بشأنهم، بغض النظر عن صحة رأيه من خطئه، فنحن أمام معالجة مفكر لعقائد من يختلف معهم في الدِّين، بنية العلم لا الكسب الديني أو المذهبي. دافع أبو الريحان عن الصابئة المندائيين، ممن يعيشون بالعراق وغيره اليوم، ويختلف فيهم الفقهاء والمؤرخون، بين متشدد ضدهم ومتسامح متفهم. قال فيهم رداً على من جعل ظنه عقيدة ضدهم: "نحن لا نعلم منهم إلا أنهم أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح، ويصفونه بالسلب (منزه من الصفات) لا بالإيجاب، كقولهم: لا يحد، ولا يُرى، ولا يظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً. إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة" (البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية). وعندما تطرح مسألة دينية أمام البيروني، يجيب بما لا يترك ضغينة أو شكاً بدين الآخر، وتراه يفسر الثالوث المقدس بما يقبله العقل ويرتضيه أهل هذا الدين. فاحتج أبو الريحان للمسيحيين أن قولهم بالأبوة بمعنى السيد لا الأب على الحقيقة. مثل تلك التي دافع عنها جاثليق الكنيسة الشرقية بالعراق طيمثاوس الكبير (ت ٨٢٣م) أمام الخليفة المهدي (ت ١٦٩هـ) وذكرت في كتاب خاص (البطريرك طيمثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي الإسلامي، مجلة بين النهرين ٤/ ١٩٧٦). قال: "اسم الأبوة والبنوة فإن الإسلام لا يسمح بهما إذ الولد والابن في العربية متقاربا المعنى؛ وما وراء الولد من الوالدين، والولادة منفية عن معاني الأبوية، وما عدا لغة العرب يتسع لذلك جداً، حتى تكون المخاطبة فيها بالأب قريبة من المخاطبة بالسيد، وقد علم ما عليه النصارى من ذلك حتى إن مَنْ لا يقول بالأب والابن فهو خارج عن جملة ملتهم، والابن يرجع إلى عيسى بمعنى الاختصاص والأثرة وليس يقصر عليه، بل يعدوه إلى غيره، فهو الذي يأمر تلاميذه في الدُّعاء بأن يقولوا: يا أبانا الذي في السماء، ويخبرهم في نعي نفسه إليهم بأنه ذاهب إلى أبيه وأبيهم. ويفسر ذلك بقوله في أكثر كلامه عن نفسه إنه ابن البشر" (البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة).

هذا، وممن يطلع على كتب البيروني: "تحقيق ما للهند من مقولة"، و"الآثار الباقية"، و"القانون المسعودي"، وغيرها سيجد ما يُخالف المصنفات في الملل والنِّحل، من قبل الكُتاب الفقهاء، والعلة أن البيروني ينطلقُ من العلم والواقع مثلما يراه، بينما مؤرخو الملل والنِّحل فمنطلقهم عقائدي وحكمهم مسبق على أديان ومذاهب الآخرين، وبهذا يؤسس للتسامح بعلم عالم كالبيروني، غير المتوافق مع مبدأ "الفرقة الناجية".

تقديراً لمنزلة هذا العالم أنشد أحد السلاطين عند لقاء أبي الريحان: "العلمُ من أشرف الولايات/ يأتيه كلُّ الورى ولا يُؤتى" (الحموي، نفسه)، لأن العلم "يعلو ولا يُعلى عليه"، وعلى أساسه يُبنى ما يُنشد من تسامح، تسامح التكافؤ بالمواطنة، لا بمعنى عفو القوي عن الضعيف.

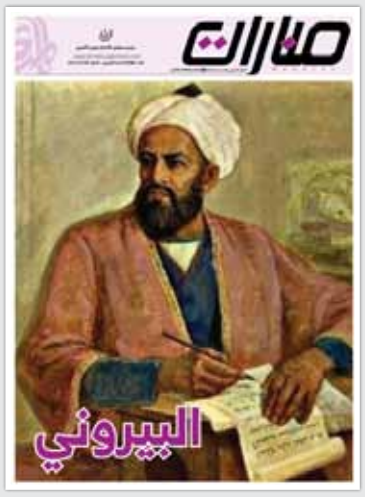

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

البيروني أديبا

حسيب شحادة

يعرف البيروني عند الأوروبيين باسم Maître Aliboron. ذاع صيت أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (٩٧٣-١٠٤٨) بالرياضيات والفلك على وجه الخصوص إلا أنه أدلى بدلوه في علوم كثيرة أخرى مثل الطب والجيولوجيا والمعادن والجغرافية والتاريخ. هذا العالم الموسوعي الفريد في نوعه خلّف وراءه عددا كبيرا من المؤلفات وصل تعدادُها حوالي المائة والخمسين وسماها أبناء له. عاش البيروني ما بين عام ٩٧٢م إلى حوالي عام ١٠٤٨م وعاصر عالمين عظيمين هما أبو علي بن سينا الطبيب والفيلسوف والحسن بن الهيثم العالم الفيزيائي. لُقّب أبو الريحان بـ"البيروني" نسبة إلي "بيرون" ومعناها بالفارسية "الخارج". عاش البيروني مدّة طويلة في مدينة "غزنة" الواقعة بين الهند وخراسان. كما وعاش في الهند سنين طويلة وترجم العديد من المؤلفات الهندية إلى العربية كما وقام بترجمة أعمال إغريقية من ترجمتها العربية إلى اللغة السنسكريتية. يكفي البيروني فخرا أنه توصل إلى أن السبب في تفاوت الليل والنهار يعود إلى دوران الأرض حول نفسها وليس السبب في ذلك الشمس.

يكفي هنا أن ننوه بما قاله المستشرق الألماني ادوارد سخاو المتوفى عام ١٩٣٠عن البيروني "إنه أكبر عقلية ظهرت في التاريخ". هذا القول شبيه جدا بما قاله ياقوت الحموي المتوفى عام١٢٢٩م "لم يأت الزمان بمثله علما وفهما". استخدم البيروني المنهج العلمي الجادّ، ويعتبر من القلائل الذين تكلموا عن حركة الأرض حول نفسها وعن الجاذبية. كما وقاس محيط الأرض وتتطرق إلى تقسيم الزاوية وأوجد أطوال الأشكال الهندسية المنتظمة وأعدّ الجداول الرياضية. بعبارة وجيزة، يمكن القول بأن البيروني يمثّل عبقرية العلم العربي الإسلامي، ففي نظره المعرفة الدقيقة هي الغاية المبتغاة.

تتميز لغة البيروني بالرصانة والدقة والعذوبة وقد أحبّ العربية حبا جمّا وهو الفارسي الأصل فقال إن العربية لغة العلم والمعرفة والفارسية للقصص والسمر. يذكر ياقوت الحموي في مؤلَّفه الشهير "معجم الأدباء" البيروني قائلا "وإنما ذكرته أنا ها هنا لأن الرجل كان أديبا أريبا لغويا، له تصانيف في ذلك رأيت أنا منها: كتاب شرح شعر أبي تمام رأيته بخطّه لم يتمه، كتاب التعلل بإحالة الوَهم في معاني نظم أولي الفضل، كتاب تاريخ أيام السلطان محمود وأخبار أبيه، كتاب المسامرة في أخبار خوارزم، كتاب مختار الأشعار والآثار". (١٥٨/١٧). لا غرو في ذلك فالبيروني كان واسعَ الاطّلاع والمعرفة من حيث اللغاتُ والثقافات العربية والفارسية والهندية وكان قد قارن بين العربية والهندية.

وكل من يتصفح كتاب "الصيدنة" للبيروني يجد دون كبير مشقّة كمّاً هائلا من الأبيات الشعرية والأمثال والحكم. لا يمكن القول بأن البيروني كان شاعرا إلا أنه كمعظم علماء الحضارة الإسلامية كان مغرما بالشعر وقرضه.

من أشعاره:

إذ لستُ أعرف جدّي حق معرفة وكيف أعرفُ جدّي إذ جهلتُ أبي

إني أبو لهب شيخ بلا أدب نعم ووالدتي حمّالة الحطب

المدح والذمّ عندي يا أبا حسن سيّان مثل استواء الجدّ واللعب

ومَن حام حول المجد غير مجاهد ثوى طاعما للمكرمات وكاسيا

وبات قريرَ العين في ظلّ راحة ولكنه عن حُلّة المجد عاريا

فلا يغرُرك مني لين مسٍّ تراه في دروس واقتباس

فإنّي أسرعُ الثقلين طرّا إلى حوض الردَى في وقت باسِ

تُنغّصُ بالتباعد طيب عيشي فلا شيءُ أمرّ من الفراق

• عن الحوار المتمدن